الأستاذ الدكتور علوي الهاشمي

اللغة العربية بين الفصحى و العامية

لا يمكن لنا أن نتصور أن بني الإنسان يمكن لهم العيش بدون لغة, لأن اللغة هي وسيلة التواصل بين البشر و لو افترضنا جدلاً أن البشر وجدوا على الكرة الأرضية و ليس لديهم لغة ما , كان لا بد من أن يخترعوها , ولعله هذا الذي كان , حيث أصل اللغة هو الصوت فحولوا الأصوات إلى ألفاظ لتتطور إلى كلمات تتألف منها الجمل التي تفيد معنى .. و هكذا حصل التواصل بين البشر بوساطة اللغات المختلفة في شتى نواحي المعمورة.

ولا أدل على ذلك من اختراع أعظم فتح إنساني على وجه الكره الأرضية ألا و هو وضع الكنعانيين لأبجدية الحروف العربية (الألفبت) و من بعدهم الفنيقيون الذين أضافوا الأرقام لتلك الأبجدية .. و بهذه الأبجدية أخذت الكتابة والقراءة دورها الطبيعي في تكوين العقول البشرية و توثيق نتاجاتها العلمية و الأدبية والتاريخية على مر الزمن.

واللغة العربية قطعاً مرت بهذه الأطوار , ولسنا هنا بصدد التاريخ لهذه اللغة , لأنه مرقوم في الكتب قديمها و حديثها.

و إننا نتفق مع القائلين بأن اللغة هوية ولغتنا العربية – بلا شك – هي هويتنا القومية و الحضارية في آن واحد , ذلك أنها تشكل الوعاء الجميل للسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم من جهة , و تحتضن من جهة أخرى فكر و وجدان و تاريخ و تراث الأمة العربية من الماء إلى الماء في الماضي والحاضر والمستقبل على اعتبار ما سيكون.

واللغة اشبه ما تكون بكائن حي يولد و يعيش , ينمو ويتطور و يموت , وهكذا الألفاظ في اللغة العربية, فهناك المئات من الألفاظ التي كانت سائدة في العصر الجاهلي و كانت تتداول على جميع المستويات في الخطاب اليومي , وفي المنتديات و الأسواق الأدبية آنذاك لكنها سرعان ما تجمدت و لم تعد تستعمل فيما بعد العصر الجاهلي, و ما إن هل العصر الإسلامي حتى جاء

بألفاظ لم تكن مستعملة كألفاظ العبادات من صلاة و صيام و زكاة و حج و ألفاظ الكفر و الإيمان والجنة والنار والنطق بالشهادتين , وهكذا اختفت ألفاظ و ظهرت ألفاظ لم تكن مستعملة من قبل, إضافة إلى ما تطلبه الأمر من ألفاظ كان لابد من استعمالها في تعريب الدواوين و ما إلى ذلك في العصر الذي سبقه, وكذلك الأمر في العصور التالية مروراً بالعصر الأموي و العباسي والعصر المملوكي والتركي ووصولاً إلى العصر الحديث الذي أطلق عليه عصر النهضة.

في تلك العصور مرت اللغة بأطوار عدة بين القوة والضعف و بين الفصحى والعامية , ولا شك أن آثار تلك المتطلبات ارتسمت بجلاء و وضوح على عصرنا هذا.

إن حركة التطور و عملية التغيير دائبة ودائمة الاستمرار ولا تكاد تتوقف , وخاصة ما بعد الثورة الصناعية ما قبل القرن العشرين , والثورة التكنولوجية ما بعد القرن العشرين و ما جلبت معها من وسائل الإعلام المكتوبة والمنطوقة والمرئية , إضافة إلى عالم الإنترنت و الاتصالات والتطورات الرقمية التي حملت معها عواصف التغيير و التأثير.

واللغات الحية لدى الأمم والشعوب, وخاصة تلك اللغات الموغلة في القدم ذات الإرث الحضاري المرموق, تلك اللغات وعلى رأسها اللغة العربية لابد من استعمالها في مستوييها الفصيح والعامي.

ولو بدأنا بالمستوى الأول أي اللغة الفصحى و نعنى هنا اللغة الأم التي تميز هوية الأمة الفكرية والعلمية والأدبية والحضارية التي لابد للعربي الذي ينتمي لأمته من التفكير بها, لينتج فكرا مميزا يحفظ بها الآداب والعلوم والتراث على مر العصور, لأن الفصحى بنحوها و تراكيبها ودلالة ألفاظها هي الأصلح للغة المكتوبة , سواء كان ذلك بكتابة الآداب والعلوم وكل أنواع النتاج الفكري كالقصة والمقالة والشعر إضافة إلى الأخبار الصحفية أو محاضر الاجتماعات الرسمية في الدواوين والمؤتمرات والمحافل وغيرها.

ولغة الكتابة قطعاً تختلف عن اللغة المنطوقة التي يتناولها العامة والخاصة في الحياة اليومية والمعيشة في كثير من الجوانب التي تبعدها الفصحى أحياناً وتقربها منها أحياناً أخرى.

فالأولى أو الفصحى يتداولها الخاصة لإيداع ما تحتويه العقول والصدور في سطورها لحفظ هذا الإنتاج الفكري بمختلف فروعه.

أما الثانية وهي اللغة المنطوقة فلئن كانت ترقى إلى درجة عالية من التواصل بين العامة والخاصة على حد سواء, فهي عاجزة ولا ترقى إلى حفظ أي نتاج فكري للأمة خاصة أنها تتأبى على الكتابة العربية وقواعدها المتعارف عليها و المتوارثة بين العرب كلهم.

و قبل أن نبدأ بالحديث عن مزايا الفصحى , لابد لنا من الاعتراف بأن العامية تواكبها و تسير معها جنباً إلى جنب , والعوامل الداعية إلى انتشار العامية بين السواد الأعظم من الأمة على حساب الفصحى كثيرة و يصعب رصدها هنا , ولكن يمكن الإشارة إلى بعضها ومنها الفتوحات الإسلامية على سبيل المثال.

فجراء الفتوحات الإسلامية خرجت أفواج كثيرة من عرب الجزيرة إلى الأمصار , مع دخول الأمم التي دخلت في الإسلام وكان لابد لها من النطق بالعربية على أنها أصبحت تشكل لهم لغة الحياة اليومية.

وهذا النوع من الهجرة من و إلى الجزيرة العربية أحدث نوعاً من النأي عن اللغة الفصحى بالنسبة لعامة الناس, وإن أتقن كثير من المسلمين من الأمم الأخرى العربية الفصحى إلى حد الإبداع والتميز فأنتجوا بها ومعها روائع وذخائر المكتبة العربية في مختلف فروع العلم والأدب آنذاك.

إلا أن اللحن تفشى بين العامة ونشأت هنالك اللهجات العامة والخاصة, حتى كبار علماء اللغة كانوا يتعاملون مع اللغة على مستويي الفصحى والعامية, حيث جاء في ترجمة أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب, وهو إمام الكوفيين في النحو واللغة حيث يقول أبو الطيب عن ثعلب في مراتب النحويين:"كان ثقة متقناً حجة, وتبحر في مذهب البصريين في إمامته في النحو على المذهب الكوفي, وكان مشهوراً بغزارة حفظه, و مع ذلك لم يكن موصوفاً بالبلاغة , و إذا كتب إلى بعض إخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة, فإذا أخذ في الغريب والشعر .. رأيت من لا يفي به أحد".

هذا عن ثعلب و هو من بين علماء اللغة والنحو الذي لا يخرج في كتاباته الخاصة عن طبع العامة , فما بالك بالآخرين من عامة الناس الذين بلاشك غلبت عليهم العامية للتواصل فيما بينهم في حياتهم اليومية.

لقد حصل في هذا العصور التي تلت الفتوحات و حملت العصور و مر الأيام تراكمات جمة جعلت اللهجة العامية الأكثر شيوعاً في لغتنا العربية.

أما في العصر الحديث و ما بعد عصر النهضة إلى يومنا هذا فلقد هبت على أمتنا العربية الكثير من الرياح والعواصف التي جرت على الفصحى وساعدت على تفشي العامية , ومن رياح التغيير هذا ما أفرزته الثورة الصناعية في القرن الواحد والعشرين من ثورة في الاختراعات وتكنولوجيا الفضائيات والانترنت ووسائل الاتصالات من الهاتف النقال وغيرها التي جلبت معها ما أثقل كاهل الفصحى وما أعلى من شأن العامية وسرعة انتشارها وضرورة التعامل معها.

على ضوء هذه المتغيرات و الاختراعات و ما صاحبها من عوامل أخرى كالاستشراق والمدارس التبشيرية والدعوات الطارئة لتغليب العامية على الفصحى , كان لابد من انتشار العامية لدرجة أنها جعلت الكثيرين من أمتنا العربية يشيحون بوجوههم عن الفصحى, وذلك لأسباب كثيرة منها على سبيل المثال:

- انتشار المسرح , فمعظم المسرحيات المصرية والشامية والخليجية كانت و مازالت تؤجى باللهجة العامية.
- وكذلك انتشار محطات الإذاعة والمذياع(الراديو) الذي تقدم من خلاله اللهجة العامية في التمثيليات والمسلسلات وغيرها من البرامج الاجتماعية والدعائية وغير ذلك.
- ثم جاء طوفان التلفزيون والفضائيات التي تبث معظم برامجها الدرامية و الرياضية والغنائية و غير ذلك باللهجة العامية.
- و أخيراً داهمتنا شبكات الإنترنت والتكنولوجيا الرقمية و ما يصاحبها من محادثات بين الأهل والأصدقاء باللهجة العامية. ناهيك عن الرسائل بالهاتف المحمول , والأغاني العاطفية و حتى الوطنية التي تؤدى باللهجة العامية.

و لعل فيما تقدم من أسباب ما يكفي لانتشار العامية في وطننا العربي.

و إضافة إلى كل ما ذكرناه فهناك ما ينفطر له القلب حزناً و أسى على تراجع التعليم في وطننا العربي حيث أشارت الإحصائيات مؤخراً إلى أن هناك أكثر من مائة مليون أمي في أمتنا العربية بين المحيط والخليج.. أي ما يعادل 40% من عدد سكان الوطن العربي الكبير.

فهل يطلب من هذه الشريحة الأمية بعد ذلك أن يتكلموا بالفصحى !! هيهات.

معوقات الفصحى كثيرة وكثيرة جداً لدرجة أن الكثيرين من المعلمين في المدارس والمعاهد والجامعات يلقون الدروس باللهجة العامية .. إضافة إلى ذلك ما تراكم من الأخطاء الشائعة التي تقلب المعنى رأساً على عقب ملحقة الأذى البالغ في دلالة العربية الفصحى.

ولأضرب على ذلك مثلاً حيث كثير من الخاصة والعامة يخطىء في جمع كلمة (كفؤ) ومعناها النظير والمفروض أن تجمع (أكفْاء) بتسكين الكاف, غير أنها شاء أن يجمعها بعض الخطباء والمحاضرون على (أكفّاء) التي مفردها كفيف و هو الأعمى الذي لا يبصر فيصير معنى الأكفّاء هو العميان وحتى هذا الجمع خطأ , لأن الخطيب أو المتكلم يريد في الأصل أن يقول هذا الشخص مؤهل و قدير في عمله والمعادل لهذا المعنى هو كلمة (كفيء) و تجمع على اكفياء , وهكذا تختلط المعاني التي لا تكاد تبين نتيجة الأخطاء الشائعة و ما أكثرها لدرجة أن علماء اللغة رصدوها و صنفوا فيها معاجم ترشد إليها جزاهم الله عنها كل خير.

زد على ذلك دخول الرطانة الغربية على لسان شريحة عريضة من الذين تأثروا بالثقافة الغربية والتي انتشرت في المأكل والملبس وحتى على لافتات المحال التجارية الموشحة بالمفردات والحروف الغريبة تزينها الأنوار الجذابة التي تبهر العيون.

إذن والحال هذه لابد أن نقر وبكل شجاعة أن العامية ماثلة و مهيمنة في وطننا العربي الكبير.

و إزاء ذلك علينا أن نتساءل هل من ايجابيات في تفشي ظاهرة العامية بين شعوب أمتنا العربية؟

و هل في ذلك من تأثير سلبي على الفصحى؟

لا أزعم هنا وفي هذه العجالة أنني قادر على الإجابة عن هذه التساؤلات بشكل قاطع , غير إنني أرجو أن يكون لي شرف المحاولة على الأقل.

و من هذا المنطلق, دعونا نواجه هذه الظاهرة بنظرة متوازنة, فلو افترضنا أن اللغة العربية ميزان له كفتان الأولى هي الفصحى والثانية هي العامية, فأي الكفتين نُرجح؟ أو أي الكفتين تُرجح؟!

ربما لا نملك أن نحكم بترجيح الكفة التي نريد, لأن الواقع من خلال عرضنا يرجح كفة العامية.

لا بأس من رجحان كفة العامية مادمنا واثقين أن الفصحى و إن لم ترجح كفتها فهي راجحة القيمة والبقاء. أما العامية الراجحة بحكم الواقع على ما بها من سلبيات, فعلينا من باب الموضوعية أن نثر ببعض إيجابياتها على النحو التالي:

برغم ما ننعى على المسرح والسينما والفضائيات ومحطات الإذاعة عاميتها , فإنه ينبغي علينا أن نعترف بأن انتشار اللهجة المصرية واللهجة الشامية واللهجة الخليجية أفرز نوعاً من التقارب بين شعوبنا العربية تلك, وجعلت هذه الشعوب على مزيد من الاطلاع على عادات الشعوب الشقيقة وتقاليدها وأعرافهم , لأن اللغة مرآة عاكسة لأمتنا العربية سوء أكانت العامية أو الفصحى.

واللهجة العامية على ما داخلها من ألفاظ غير عربية فمعظم , مفرداتها وجملها مستقاة من أصول العربية الفصحى, و إنتشار العامية من خلال وسائل الإعلام الحديثة سواء كانت مسرحاً أو سينما أو تلفازاً أو إذاعة أسهم في نشر الكثير من الألفاظ و مترادفاتها , وسهلت العامية على قاطني الأوطان العربية فهم لهجات بعضهم بعضاً , وهذا بلا مراء يساعد على فهم وجهات النظر ونشر المحبة والوئام بين هذه الشعوب , ولعل هذا يغذي الومضات الفكرية هنا و هناك وينمي الشعور بالالتحام والغيرة على هذه الأمة بمشرقها و مغربها , و الأمل يحدونا من خلال هذا كله أن تقال عثرة أمتنا و أن تنهض من كبوتها , لترسم تأريخاً جديداً باللغة المنطوقة ولتكتب عهداً مفعماً بالإبداع والتميز يحدد لنا موقعاً مرموقاً فوق الأرض وتحت الشمس.

أجل هذه حقيقة لا يمكن أن ننكرها إذ رجحت لغة العامية بحكم معطيات العصر والواقع المعيش, و إنه لدينا القناعة التامة بأنه لا خطر على الفصحى من العامية , لأن لكل منهما دوره.

فالفصحى تبقى هي لغة الخاصة, اللغة المكتوبة والوعاء الرصين الرائع الذي يحفظ و يستوعب نتاج أمتنا العربية بكافة فروعه العلمية والأدبية والحضارية.

والعامية تظل لغة العامة , اللغة المنطوقة ووسيلة التواصل اليومي بين الشعوب بحكم الأمر الواقع.

وهذا لا يعني أن تنتصر العامية على الفصحى, بل ينبغي علينا أن نبحث عن أنجع الوسائل للإنتصار أيضاً للفصحى والارتقاء لها لدرجة عالية من الشيوع بين الخاصة والعامة على حد سواء , على أن ينبري أهل العلم وأصحاب القرار لاستنباط النظريات العلمية والعملية

لتحديث اللغة العربية الفصحى وتيسيرها بشكل لا يطامن من عظمتها وشموخها كما لا يجعلها غريبة متقعرة ممجوجة من العامة.

وقبل أن نختم حديثنا حول الفصحى والعامية، علينا أن نشير إلى بعض الفروق التي تحدد سمات قبل منهما، فعلى الرغم من أن العامية تشتق ألفاظها من الفصحى سواء كان ذلك في اللهجة المنطوقة أو حتى المكتوبة في الشعر النبطي وفي نصوص المسرحيات والتمثيليات والأغاني، فإنها تلفظ وتكتب غير ملتزمة بنحو الفصحى من إعراب وحركات وتسكين، فغالباً ما تلفظ وتكتب بالتسكين.

وهنالك فرق آخر بين الفصحى والعامية، فالخطيب أو الشاعر أو الكاتب أو ا لقصاص عندما يتكلم أو يكتب الفصحى فهو بحاجة إلى المزيد من الذهن والتفكير وإعمال المنطق والالتزام بقواعد اللغة العربية نحواً وصرفاً، ذلك أنه مستهدف من قبل المتلقي أو الناقد؛ لأنه إنما يكتب للآخرين لإيصال فكرة أو رسالة أو معلومة فكان لزاماً عليه أن يدقق ويمحص لينتج كلاماً، فصيحاً ومبنياً ومتوازناً في آن واحد.

ومن هناك كانت الفصحى أكثر صلاحاً وبقاءً وخلوداً، بعكس العامية التي هي ربما أكثر استعمالا وشيوعاً إلا أنها لا ترقى لدرجة الخلود والبقاء لأنها تتخير وإنما حسب الزمان والمكان والإنسان أما العربية الفصحى فهي باقية إلى ما شاء الله.

وعلى ضوء ما أسلفنا فإن المغربي الناطق بالعربية لا غنى له عن عربيته بفرعيها الفصيح والعالي، لأنه مضطر أن يتعايش معها إن في حياته اليومية بشكل عام أو في متطلباته الفكرية والعلمية والحضارية بشكل خاص.

وخلاصة القول: أن الشعوب العربية بما يمكن أن يتوافر لديها من قوة لا تستطيع أن تنفك من عقال العامية لأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحياة اليومية ومتطلباتها فالتعامل معها وبها بالعفوية الماثلة أيسر من التعامل بالفصحى أو معها لما بها من قواعد وقوانين ونحو وصرف لا يتقنها إلا الخاصة بل خاصة الخاصة.

فنحن والحال هذه نقر ونعترف أنه علينا التعامل مع العامية مع العمل على تهذيبها وتقريبها من الفصحى، نقول نتعامل معها وبها دون إفراط. على أن نجل ونكبر الفصحى دون تفريط بها.

وعليه فإن العامية لا يمكن أن تكون لغة حبة، وإن اتسمت بأنها لغة حياة، غير أن الفصحى هي اللغة الحية لغة الهوية والبقاء والخلود، إذ لو انقرضت الفصحى لا سمح الله لما بقيت للأمة العربية هويتها، حيث تنقرض الأمة بانقراض لغتها.

ومن أجل العمل على النهوض بالعربية الفصحى والحفاظ على بريقها وعطائها لا بد أن نبرى أصحاب القرار في امتنا العربية وأهل الفكر والعلم والثقافة والأدب لوضع الأسس المتينة والقواعد الرصينة التي تحفظ للعربية تألقها وفصاحة لسانها.

ولعل في الالتفات إلى مرئياتنا المتواضعة – وهي المستقاة من مرئيات الكثيرين من أهل العلم والفكر من عالمنا العربي– ما يمكن به النهوض بالعربية الفصحى، حيث ينبغي على المهتمين والمسئولين وأصحاب القرار في الوطن العربي الكثير أن يعملوا على ما يلي:

تحسين المستوى التعليمي بشكل عام والعربية الفصحى بشكل خاص حيث اللغة الأم هي الوعاء الأصيل للتفكير وحفظ العلوم في الصدور وفي السطور، وكل المبدعين غالباً ما يكون نتاجهم من خلال التفكير باللغة الأم، لذا يجب تمكين المعلم العربي من لفته العربية الفصحى. وذلك بفرض العربية الفصحى كلغة للتعليم في كافة المراحل ومنع استعمال العامية الدارجة ووضع القوانين الصارمة لضبط الأمر.

ولا يمكن للمستوى التعليمي أن يتقدم أو يرتفع في وطننا العربي إذا ما بقيت الأمية مستشرية في بين أفراده وفي ربوعه، حيث أشارت ا لإحصائيات الأخيرة على وجود مائة مليون عربي أمي لا يقرأ ولا يكتب، فلا يمكن لأمة فيها أكثر من الثلث يرزحون تحت نير الأمة أن ترتفع إلى المستوى المنتج للثقافة.

ومن أجل أن ترتفع الجماهير إلى المستوى الثقافي لابد من الدعوة بل العمل بالأسنان والأظافر لنزع شوكة الأمية المغروزة في الجسد العربي من المحيط إلى الخليج.

اللغة هوية ووطن وسيادة فمعظم دساتير الأمم العربية تنص على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد. ومن هنا ينبغي الحرص على بهاء العباءة العربية الفصحى بأن لا تطغى عليها اللغات الأجنبية الأخرى مهما كانت الأسباب.

وعليه فإننا ننتظر قراراً تاريخياً حاسماً من رعاة امتنا العربية أن يصدروا قراراً بإدخال التعريب في مناهج ومقررات مؤسسات التعليم العربي وخاصة في الكليات العلمية كالطب والهندسة وغيرها من الكليات لأنه آن لنا ولمفكرينا ولعلمائنا أن نفكر باللغة الأم وليس باللغات المفروضة علينا. ولعل في تجربة عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي في تعريب الدواوين خير شاهد على نجاح التجربة.

ولتنفيذ هذا لا بد لنا في هذا العصر من مأمون تاريخي آخر لإنشاء مكتبة على غرار مكتبة الحكمة في العصر العباسي تنشط في مجال الترجمة من وإلى اللغة العربية بجميع اللغات الحية في العالم لتلاقي الثقافات والإفادة منها. من خلال مترجمين مبدعين يتقنون العربية الفصحى كما يتقنون اللغات الأجنبية الأخرى لتكون الترجمة ناصعة وفصيحة ومبينة في ذات الوقت.

فلغتنا العربية من أكثر اللغات العربية أتساعا واشتقاقاً يشهد لها القاصي والداني مما دعا الرئيس الفرنسي "متران" إلى حث علماء اللغة الفرنسية إلى الاستفادة من العربية في الظاهرة الاشتقاقية لتطوير الفرنسية وإثرائها، وذكر مثل ذلك في خطابة أمام المؤتمر الفرانكفوني.

توجيه أجهزة الإعلام والأوساط الثقافية العربية إلى ضرورة الشعور بالمسئولية والواجب القوي تجاه اللغة العربية، وربما يكون ذلك من خلال مراقبة الصحافة والإعلام للحد من التجاوزات اللغوية ووضع هذه الأجهزة والمؤسسات تحت طائلة المساءلة.

وفي الختام يبقى أن نقول: إن البون شاسع بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، غير أنه علينا دائماً أن نخطو الخطوة الأولى وأن يكون لنا شرف المحاولة وشرف الإصرار على بلوغ الهدف.

ورقة بحث مقدمة من

الأستاذ الدكتور علوي الهاشمي